العمارة الدّينية للإمارات المستقلّة بإفريقيّة قطيعة أم تواصل مع التقاليد المعماريّة المحليّة؟

دة. وئام السعيد*

مقدمة: تنقسم الحقبة التاريخية الوسيطة للبلاد التونسية إلى عدّة فترات مثّلت محور اهتمام المؤرّخين والباحثين[1] لصياغة رؤية زمنية متوازنة خلال الخمسة القرون الأولى للهجرة، وذلك منذ فترة الولاة (22ه-184ه/642م-800م)، فخصّص محمد الطالبي بحثه حول الدولة الأغلبية (184ه- 296ه/800م-909م)، واهتمّ فرحات الدشراوي بالدولة الفاطمية (296ه-362ه/909م-973م)، وتناول الهادي روجي إدريس في بحثه الدولة الزّيرية (362ه-442ه/972م-1052م)، بينما كانت فترة حكم الحفصيين (625-982ه/1228م-1574م) محور اهتمام روبار برنشفيك. غير أنّ فترة حكم الإمارات المستقلة (442هـ -555هـ/1052م-1160م) تمّ اعتبارها مجرّد فترة انتقاليّة تميّزت بالهامشيّة ولم تحظى بعمل خاص بها، وذلك ارتباطا بالظرفية التي أدت إلى ظهورها بعد الهجرة الكبرى للقبائل العربيّة الهلالية والسليمية[2] من مصر إلى بلاد المغرب، والتي بعثها الخليفة الفاطمي الملقب بالمستنصر بالله[3] (شعبان 427/ 30 ماي-27 جوان 1036م) لمعاقبة المعزّ بن باديس الصنهاجي (الذي بويع بالإمارة يوم 21-23 ذى الحجة 13/406 ماي 1016م) على إثر إعلانه القطيعة السياسية مع القاهرة الفاطمية؛ فأدّت المواجهة التى جمعت جيوشه مع الهلاليين في موقعة حَيْدرَان[4] سنة 443 هجري/1051م إلى انهيار الوحدة الترابيّة للدولة الزّيرية وانقسام البلاد إلى مدن دويلات تتمتع بحكم ذاتي مستقل والتي تأسست في المدن الساحليّة هي إمارة زناتة في طرابلس، بنو جامع في مدينة قابس، وبنو برغواطة في مدينة صفاقس، وبنو زيري في المهدية، وبنو سرحان من بني فادغ في مدينة سوسة، وبنو خراسان في مدينة تونس، وبنو زياد في المعلّقة بقرطاجنّة، وبنو الورد في مدينة بنزرت، أما الإمارات الدّاخلية فهي بنو الرّند في مدينة قفصة وبنو الكلاعي في الكاف، تواصل حكمها زهاء قرن إلى قدوم الموحّدين من السوس الأقصى سنة الأخماس خلّفت لنا هذه الإمارات مدوّنة من المعالم المعماريّة الهامّة ثرية المحتوى والخصائص إذا ما قمنا بتنزيلها في إطارها السياسي بدراسة مقارنة مع بقية العمائر الفاطمية والزيرية للإجابة عن مسألة مخصوصة حول الخصائص المعماريّة لهذه الإمارات قطيعة أم تواصل مع التقاليد المحليّة بافريقية.

*أستاذة مساعدة متعاقدة بجامعة سوسة- وباحثة في مختبر النخب، جامعة منوبة- تونس.

I- مدوّنة المعالم:

عمارة بنو خراسان في جامع الزّيتونة: فترة مضيئة من تاريخ الفن المعماري بإفريقيّة تبرز المآثر المعمارية لحكام العائلة الخراسانيّة في مختلف أركان جامع الزيتونة من خلال مجموعة من النقائش المحفورة والعناصر الزّخرفيّة ولم يعد في عهدهم على هيأة قلعة محصّنة بعد أن انفتح على محيطه الخارجي بارتفاع عدد أبوابه من ستّة أبواب إلى اثني عشر بابا[5]، وتلك المؤرّخة بنقيشة هي الباب الذي يفتح على الواجهة الشّرقية للجامع (صورة عدد1) ويضمّ أقدم نصّ معماري تخليدي وصلنا عن الفترة الخراسانيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم
1- مما أمر بعمله القاضي عبدا
2- لرحمن بن محمد بن الفقيد محرز
3- رحمة الله عليه وذلك في أوا
4- نل شهر ربيع الأول سنة سبع
5- وخمسين واربعماية.

وضعت النقيشة فوق ساكف الباب من الواجهة الشرقيّة لتسهيل حركة خروج ودخول المصلّين إلى بيت الصلاة ومزيد إضاءتها، وهو ما يدل على تزايد عدد المصلين نتيجة لتطوّر الحركة العمرانيّة بفضل الوضع السياسي والاقتصادي المستقر للمدينة. كما نسجل في هذا النّص اقتصارا على تخليد اسم الآمر بهذا العمل وهو عبد الرحمان بن محمد بن الفقيه محرز، ربّما يكون حفيد القاضي محرز بن خلف الذي توفي سنة 413هـ وإن صحّ ذلك فتلك إشارة عن توارث لمنصب القضاء أو عن تخصّص في الفقه والقضاء داخل أفراد العائلة الواحدة ونتساءل هل تكون السلطة الرّسمية هي الآمر بهذا العمل؟ أم هي مبادرة شخصية خاصة مع علمنا أنّ جدّه محرز بن خلف قام بترميم أسوار المدينة والأقرب بالتالى أن يكون عمل تطوّعيا وليس رسمّيا. والباب الثاني هو**باب سوق العطّارين (صورة عدد2)** الذي يصل بين الرواق الشمالي والغربي من الصحنيفتح على سوق العطّارين، وهو مؤرخ بنقيشة توجد في أعلى ساكفه تحمل نصّا تخليديّا مؤرّخ في رمضان سنة 474هـ/2 فيفري – 3 مارس 1082م[6]، يتكوّن من عشرة أشرطة كتابيّة من الخطّ الكوفي البارز الخراساني المزهّر على لوحة مستطيلة الشكل (1م × 70صم) يحيط بها إطار مسطّح، وترتفع الحروف العالية داخله 10 صم، قدّت من الرّخام الأبيض ونص النقيشة هو التالى:

1- بسم الله الرحمن الرحيم
2- وصلى الله على النبي محمّد
3- وعلى آله وسلم ممّا أمر بعمله
4- الشيخ أبو محمد علد الحق
5- ابن عبد العزيز بن عاشور

6- سان في شهر رمضان من سنة
7- أربع وسبعين وأربعمائة و
8- من بنا عبد الغني ابن المليلي و
9- عوض ابن القبيطي وصلى
10- الله على النبي محمد وآله

يدلّ هذا الباب بتركيبته المعماريّة على أنّه فُتح استجابة لعملية توسيع معماري في الجانب الجوفي لنفس الغاية التي فتح لأجلها باب العطارين ليسهّل عمليّة دخول وخروج الناس من الجامع. ويُنسب إلى عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان مؤسّس الإمارة الخراسانية.وأمّا فيما يتعلّق بمنفّذي هذه الأشغال فهما عبد الغني بن المليلي الذي ورد اسمه في نقيشة قبة سيدي بو خريصان وعوض ابن القبيطي القائم على أشغال مسجد المهراس حيث تخصّصت أفراد العائلة الواحدة في حرفة البناء. وجاء المستوى الفني لهذا النص بمثابة المؤشّر على ما بلغته الكتابة من إتقان وأصبحت تمهّد لظهور الكتابة النسخيّة. أما بقية الأبواب غير المؤرّخة بنقيشة نجد باب على الواجهة الشرقيّة وبابان على الجهة الغربيّة، وتدلّ عمارتها على انتسابها إلى الفترة الخراسانيّة من خلال شكل الإطار المحيط بها والحجارة المسطّحة ذات اللّونين البني والأحمر إحدى خصائص الفن الخراساني. أما داخل الجامع في غرفة الإمام نجد نقيشة مثبّتة على جدار القبلة وهي محفوظة الآن بمتحف باردو، تحمل نصّا تخليديّا في عارضة مستطيلة (2×0.10 م) بدون إطار يبلغ ارتفاع الحروف العالية فيها 9صم، متكوّن من شريط كتابي واحد من الخطّ الكوفي البارز نصّها"[7]..؟ عمل على يد (الشيخ) أبي محمد عبد الحق بن عبد العزيز ابن (كذا) الله..."وهو يخلّد عمل الحاكم عبد الحق بن عبد العزيز بن خرسان، جاء مبتورا في بدايته ونهايته، لذا نرجّح أن يكون هذا النّص جزءا فحسب من أحد الأشرطة الكتابيّة التّامة والطّويلة نسبيا. ويمكن أن يتضمّن على الأقل البسملة وتاريخ تنفيذ العمل.

لم تقتصر الخصائص المعماريّة الفنّية الخراسانيّة على الجانب النقائشي إنما أيضاالزخرفي أُعتمد فيه على تقنية بناء يصطلح عليها "بالأبلق"، وهي عبارة عن تناوب الحجارة بين لون الحجر الأحمر والبنى. برز هذا الشكل الزخرفي في الصحن تحت الرّواق القبلي نجدقبّة البهو التي مثّلت في حدّ ذاتها فسيفساء من الفنون المعماريّة التي عرفتها البلاد حسب نقيشة موثّقة في رقبتها تعود إلى سنة 381هـ/991م، نفس الزخرف نلحظه في الجانب الأيسر من المحراب على جدار القبلة (صورة عدد3) ويعدّ من الخاصيّات المميّزة لفنّ البناء الخراساني الذي نجده في معلم آخر يعود لنفس العائلة وهو قبة سيدي بوخريصان وفي نقيشة مسجد المهراس، كما تعطينا هذه التقنية شكل المثلث خاصة في كوشات العقود. ونجد داخل بيت الصلاة، على مستوى حائط القبلة بالجانب الأيسر للمحراب، زخرف هندسي تمثّل في ثلاثة أقواس مُدمجة ويعلوها إفريز، واحد من هذه الأقواس يعلوه

طاقة صمّاء وهي الوحيدة التي بقيت من ضمن سلسلة قدُطمست، نستطيع إرجاع هذا الزُخرف إلى القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر وهو شبيه بذاك الذي نجده في بقيّة المعالم الخُراسانية وكذلك في جامع صفاقس وسيدي علي عمّار بسوسة[8]. ومن العناصر المعماريّة الخراسانية التي تحلّى بها جامع الزيتونة هي التيجان التي تحملها أعمدة متوأمة تتقدّم المحراب يصفها لنا خلال القرن السادس الهجري جغرافي مغمور هو محمد بن أبي بكر الزّهري[9]، الذي يقول بأنّها أعمدة "مذهّبة". تشبه هذه التيجان بعناصرها المتكونة من ورقة الاكانتس والمحاليق التيجان الزيرية لكنها اقل تعقيدا من حيث زخرفها.

جامع القصر[10]: نشير في البداية إلى انه يندر ذكر هذا المعلم ووصفه في المصادر، فالكتب الجغرافية وكتب التراجم والمناقب التى عادة ما تملئ الفراغ الذي تتركه النصوص الأدبية لم تشر إليه رغم أن العديد منها تعرض إلى مكوّنات المدينة عهد بني خراسان مثل الأسوار والأبواب[11]. مما جعل الآراء تختلف حول انتسابه إلى هذه العائلة وترتكز فكرة أنه معلم خراساني على عدّة مؤشّرات[12]، فقد سعى أمراء بني خراسان إلى تحقيق الازدهار للمدينة فعملوا على تأكيد ودعم نفوذهم ببناء صرح يخلّد حضورهم وانجازاتهم بتونس، أورد لنا ابن خلدون إشارة عن أحمد بن خراسان الذي تولى الحكم سنة 500ه/1104م، تفيدنا بأنّه "كان من مشاهير رؤساء بني خراسان هؤلاء فاستبد بتونس لأوّل المائة السادسة وضبطها وبني أسوارها، وعامل العرب على إصلاح سابلتها فصلحت حاله، وبني قصور بني خرسان"[13]، واكتفى ابن عذارى بذكر أنّه "قد بنى قصرا سمى قصر بني خراسان"[14] فجاءت تسمية جامع القصر (صورة عدد4) نسبة إلى هذا القصر الأميري، غير أن الإشكال يبقى في تحديد موقعه خاصة أنّه ليست لدينا مؤيدات أثرية تدلنا عليه، ودون شك انه كان قريب من الجامع الكبير أي في الجهة الغربية من المدينة غير بعيد عن الأسوار الحفصية في ربض باب منارة، وهو الذي يحتلّ حاليا دار حسين الملاصق لجامع القصر ولا يفصل بينهما سوى البطحاء. والمؤشّر الآخر الدال على انتسابه إلى الخراسانيين هو أنه بني ضمن مخطط حضري لتهيئةكلّ حارة في المدينة بجامع أو بمسجد نتيجة للنّمو الديمغرافي للسّكان الذي كانت نتيجته كما سبق وان رأينا ارتفاع عدد أبواب جامع الزيتونة وأيضاتشييد مسجد المهراس في الناحية الجنوبية للمدينة في مدخل باب بحر، إضافة إلى بعض المعالمالتي تعود إلى هذه العائلة الموجودة في نفس الناحية مثل القبة الخراسانية وهي امتداد لمقبرة السلسلة تحديدا في شارع بوخريصان الذي احتفظ بتسمية العائلة مع بعض التحريف، ودار حسين أو القصر الذي ينسب إليها لجامع.كما جاء النّمط المعماري للواجهة الشرقيّة شبيه بالواجهات الزّيرية وشكل المحراب يشبه المحاريب الزّيرية بالمنستير ومحراب جامع المهديّة المؤرخة خلال القرن الحادي عشر ميلادي.

الوصف المعماري للمعلم: يقع جامع القصر في الناحية الشماليّة الغربيّة للمدينة في ربض باب منارة بجانب القصبة في موقع غير بعيد عن الأسوار تفصله ساحة صغيرة عن دار حسين المعهد الوطني للتراث حاليا حيث تقع أيضا في نفس الناحية قبة سيدي بوخريسان. يحتل الجامع أرض مسورة تأخذ شكل مستطيل طوله 50م وعرضه 19م. يتكوّن المعلم من جزئين مختلفين وضعت على محور شرقي غربي نجد في الجناح الشرقي بيت الصلاة بينما خصّص الجناح الغربي للصحن وبيت الوضوء،تطلّ واجهته الرئيسيّة على الشارع الذي يحمل نفس التسمية. تأخذ **بيت الصلاة** شكل مستطيل من الخارج يبلغ طولها 30م وعرضها 19م. أما من الداخل فمقاييس طولها 24م وعرضها 15م. وهي مغطاة بأقبية متقاطعة محمولة على عقود مدعّمة تحملها أعمدة قديمة ذات ارتفاع يصل إلى 4م. تنقسم بيت الصلاة إلى سبع بلاطات متعامدة مع جدار القبلة وأربعة موازية له تكون بلاطة المحراب أكثر اتساعا وارتفاعا عن البقية وتقوم بائكة الرواق الموازي لجدار القبلة على أعمدة متوأمة ما يعطى للمعلم صفة التناظر ولكن التثبّت في هندسة المعلم يبرز بعض الشوائب في تنظيم البلاطات فنجد تفاوت في الاتساع، والاتجاه من الشرق إلى الغرب يعطينا المقاييس التالية: -3.30م -2.80م -3.5م -2.40م -2.60م -3.20م، ويمكن تفسير هذا التباعد بعدم قدرة مهندس أو البناء على جعل الدعّامات متساوية لأنّه واجه عدّة عوائق أدت إلى عدم تجانس مقاييس البلاطات وعدم تساوي خطّ العقود والأقبية. يحتل المحراب (صورة عدد 5) الجدار القبلي للمعلم تميّز بعناصره الضخمة يصل ارتفاعه إلى 4.50م واتساعه 3.27م وعمقه1م، ومثل بقية المحاريب بإفريقية فإنّه تكوّن من جزئين يتمثل الجزء السفلى في حنية نصف اسطوانية مزخرفة بقنوات تعلوها عقود صغيرة أما الجزء العلوى فجاء على شكل قبة نصف دائرية أخذت شكل محارة تشع من الأعلى إلى الأسفل، في الجهة الشرقيّة من بيت الصلاة نجد فتحة تؤدى إلى صحن صغير وهي دون شكّ مقصورة الإمام. ويجب الإشارة إلى أن بيت الصلاة خالية من كلّ شكل زخرفى بنيت من حجر رملى لونه فاتح أو من صلصال ذي الحجم الكبير يبلغ مقاييسه 50صم 30صم تمّ جلبها من قربص ومن مقاطع الوطن القبلى وأيضا من هضبة سيدي بوسعيد أما الحجارة الكبيرة ذات اللّون الأصفر الفاتح فهى من مقاطع الهوارية، على خلاف الصحن الذي جعل من دبش مطلى بالجير، يمكننا هذا النوع من الحجارة بناء جدران سميكة حيث يبلغ سمك الجدار الجنوبى 2.5م، والجدار الغربي 2م، أما الجدار الشمالي فبلغ سمكه 3م والشرقي 2.50م، ويصل طول هذه الجدران إلى 8م. ويمتد الصحن على الناحية الغربية من الجامع يبلغ طوله 12م وعرضه 18م يتقدمه من الجهات الأربعة رواق عمقه 3م. كل جهة تتكوّن من بائكة تحملها أعمدة معادة الاستعمال يبلغ ارتفاعها 3م. في طرف حائطه القبلي يوجد محراب خال من أي زخرف يتكوّن من حنية تعلوها قبة نصفية. ونجد في الزّاوية الشماليّة الشرقيّة للصحن بوّابة صغيرة تمكن من الدخول إلى بيت الصلاة التي

تنخفض عن أرضية الصحن بحوالي مترين. اعتمادا على هذا الوصف المعماري يمكن القول بأن جامع القصر قد انفرد بضخامة هندسته وعمارته وجدرانه السميكة وأحجاره الكبيرة.

مسجد المهراس[15]: يقع جامع المهراس(صورة عدد6) في وسط مدينة تونس العتيقة في الجهة الشرقية قرب باب البحر في مدخل طريق جامع الزيتونة الذي يمثل منطلق لإحدى أهم المحاور الرئيسية التي تشق المدينة من شرقيها إلى غربيها في اتجاه القصبة والذي يتقاطع في مستوي الجامع الكبير مع محور آخر شمالي جنوبي ينطلق من باب سويقة ليصل إلى باب الجزيرة بذلك يقع مسجد المهراس في قلب المركز التجاري والمركز الديني لمدينة تونس ويعود تأسيسه حسب نقيشة مثبتة في يسار مدخل المسجد إلى عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان مؤسس الدولة الخراسانيّة.الجامع في وضعه الحالي هو معلم حضري يقع على مساحة غير متساوية الأضلاع يميل إلى الاستطالة بين الشمال والجنوب ينقسم إلى جزئيين بيت الصلاة والصحن يتوسط مدخله الرئيسي الجهة القبلية ويفضى إلى سقيفة مربعة الشكل يوجد على يمينها ميضأة محدثة وعلى يسارها نقيشة التأسيس مؤرخة بسنة 485هـ-1092م، على نفس المحور نجد باب بيت الصلاة الذي يفتح في ضلعها الشرقي وهي تنقسم إلى ثلاث بلاطات طوليّة وخمسة بلاطات موازية لجدار القبلة، في الرّكن الشمال الغربي تمتد غرفة ذات قبو طولي يكتنف بيت الصلاة أربعة أبواب يفتح الباب الرئيسي على البلاطة الأولى الموازية لجدار القبلة نجد الباب الثاني على مستوي البلاطة الرابعة والثالث على مستوي البلاطة الخامسة ويؤدى إلى الطابق الثاني والذي يصعد إليه عبر أدراج، تفتح جميع هذه الأبواب على الصحن وهو الجزء الثاني المكوّن للجامع ويحيط ببيت الصلاة من الجهتين الشرقيّة والشماليّة حيث يوجد في الجهته الشمالية بابان يفضيان إلى بيت الصلاة أما من الجهة الشرقيّة فيأخذ هذا الجزء من الصحن شكل مربع في طرفه القبلي يوجد رواق ذي عقدين. وفي الركن الشمال الشرقي توجد الصومعة المستحدثة. يتكون المعلم من **بيت الصلاة** مستطيلة الشكل بين الشمال والجنوب تتكون من ثلاث بلاطات طولية وخمسة بلاطات عرضية سقف القاعة أقبية متقاطعة تحملها عقود نصف دائرية متجاوزة تسقط على أعمدة معادة الاستعمال في مستوى البائكة العمودية الثانية والثالثة وعلى ركائز في مستوى الجدار الشرقي والغربي والتي تحمل عقود صمّاء، كما تقوم البائكة الثالثة الموازية لجدار القبلة على ركائز يبلغ طول الواحدة 3م ذات شكل مربّع سمكها 60 صم/60 صم، أما البائكة الرابعة الموازية لجدار القبلة فتقوم على اسطوانتين لا تحمل فوقها تيجان وليس لها قاعدة بينما تصل إلى أعلى السقف حيث نجد الطابق الثاني. بالنسبة لأعمدة بلاطة المحراب تعلوها تيجان من النمط الحفصي نجد ثلاث متشابهة وواحد في الركن الشمالي الغربي مختلفا عنها وترتكز هذه الأعمدة على قواعد مربّعة.

يقع المحراب في محور جدار القبلة ينقسم إلى مستويين مستوي سفلي يأخذ شكل حنية ذات قوس نصف دائري من الرّخام المتوسط الحجم أما المستوي العلوي فقدّ من الجصّ وهو محدث ونظرا لأعمال الترميمات لا يمكننا أن نميّز العناصر المعمارية الأصلية في هذا الجامع عن تلك المضافة تعلو المحراب قبة كرويّة الشكل تحوّلت من الهيكل المربّع إلى الشكل الدائري بواسطة مثلثات كرويّة وطاقات ركنيّة تأخذ شكل محارات يفصل الجزئين رقبة تحمل نقيشة. أما الجزء الثاني لبيت الصلاة يتمثل في وجود طابق ثاني على مستوي البلاطة الخامسة. ومقصورة في الركن الشمالي على مستوى الأسكوب الشرقي وأخرى مغطاة بقبو طولي في شمال الأسكوب الغربي ربما كانت في الأصل الميضأة. على الجناح شرقي لبيت الصلاة يمتد الصحن يأخذ شكل مستطيل من الناحية القبليّة يوجد رواق تتقدمه بائكة متكوّنة من عقدين يسقطان على ثلاث أعمدة تحمل فوقها تيجان وهذا الرواق حسب الرواية الشفوية يمثل الحدود الأصليّة لمساحة الجامع أما الجهة الجوفية فنجد فضاء يحيط ببيت الصلاة وفي الركن الشمالي الشرقي منه توجد الصومعة الهرميّة الشكل.

يؤرّخ المعلم بنقيشة[16] (صورة عدد7) توجد على جدار يسار مدخل المسجد من الداخل ويحيط بها إطار على شكل عقد مثبتة في لوحة مستطيلة الشكل مقاييسها 60 × 37 صم يبلغ ارتفاع الحروف العالية داخلها 6، 7 صم تحمل نصّا تخليديّا مؤرّخا في رمضان 485هـ/ 5 أكتوبر– 3 نوفمبر 1092م تتكوّن من عشرة أشرطة كتابيّة من الخطّ الكوفي البارز الخراساني قدّت من رخّام ذي لون رمادي. نصّها الآتي:

- بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على
- محمد وعلى آله وسلم. قل هو الله أحد
- الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له
- كفؤا أحد مما أمر بعمله الشيخ الأجل أبو
- محمد عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان
- من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعماية.
- رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة.
- {ز} النجاة من النار آمين رب العالمين و
- ....بنا هذا المسجد عبد الرحمن بن.
- القبيطي ومحمد ابن (كذا) علي السوسي ؟ عن

جاء النصّ حاملا لإشارة حول نوعية الأشغال التي تمّ إنجازها، وهي عبارة عن "مسجد". وبرغم ما طرأ على المعلم من إضافات وترميمات حديثة، ما يزال الجزء الأصلي منه قائما إلى الآنوهو أصغر حجما، فتصل حدوده إلى البلاطة الثالثة. ويبدو واضحا أنّ الهدف من تأسيسه لم يكن جامعا للخطبة، وإنّما لأداء الصلوات الخمس، خاصة أنه يقع قرب الجامع الكبير، في آخر نهج جامع الزيتونة، وربما في بنائه أيضا استجابة للتوسع العمراني الذي عرفته مدينة تونس خلال

فترة حكم بني خراسان.وأمّا عن منفذي هذه الأشغال حسب ما جاء في هذا النصّ هما عبد الرّحمان ابن القبيطي الذي ورد اسمه أيضا في نصّ نقيشة في أعلى ساكف باب الجامع الكبير الذي يفتح على سوق العطّارين ومحمد علي السوسي وحسب تسميته ينتسب إلى العائلة السوّسية شأن البرجيني الذي ورد اسمه في نصّ قبة البهوّ ما يقيم الدليل على أن أمراء بنو خراسان يعتمدون في عملية تنفيذ أشغالهم على نفس ورشةالبناء وعلى نفس النقّاش. أمّا بالنسبة إلى الجانب الفني، فإنّنا نجد تشابه كبير بين هذا النّص المؤرّخ بسنة 485هـ/1092م ونصّ سنة 457هـ/1064م بجامع الزيتونة والذي يرجع تاريخه إلى بداية حكم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، ورغم التباعد الزمني بين الفترتين فهناك تواصل لتقاليد الكتابة في ظلّ هذه العائلة التي خصّت نفسها بأسلوب يميّزها عن غيرها.

-جامع القصبة ببنزرت: يقع جامع القصبة ببنزرت (صورة عدد8) في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة، قرب مدخل الأسوار داخل القصبة التي تقع في الجهة الشماليّة للميناء القديم، تحاذيها عدّة معالم خاصة الزوايا والمساجد المؤرخة بالفترة الحديثة مثل زاوية سيدي المسطاري وسيدي علي عزّوز. معلم حضري يأخذ شكل شبه منحرف يميل إلى الاستطالة، ينقسم المعلم إلى جزئين بيت الصلاة والصحن،تحتل بيت الصلاة ثلثي المساحة، واجهة المعلم غربية تفضى إلى صحن شبه منحرف يحدّه رواقين في طرفه الشرقي، يتكون كل رواق من بائكة ذات ثلاثة عقود، ثم نجد ثلاث مداخل تفضى إلى بيت الصلاة المغطاة بالقباب على خلاف بقية المساجد المغطاة بأقباء متقاطعة، تنقسم إلى خمسة أساكيب متعامدة مع جدار القبلة وأربعة بلاطات موازية له.يمتد في الضلع الجوفي قبو طولي، يمثل بيت الصلاة للنساء، وفي الجهة الشرقيّة فضاء أُدخل حديثا إلى الجامع، حسب أحد القائمين على الجامع. تمتد بيت الصلاة على مساحة ذات شكل مستطيل، سقفها مقبّب تحمله أقواس نصف دائرية متجاوزة، تقوم على أعمدة اسطوانية الشكل، تعلوها تيجان قديمة مُعادة الاستعمال. على مستوى البلاطة الوسطى، وفي الضلع القبلي يوجد المحراب، الذي ينقسم مثل بقية المحاريب بإفريقيّة إلى جزئين: الجزء العلوى يتمثل في حنية تتكوّن من عقد نصف دائرى كامل، يحيط به زخرف مضاعف ومقعّر، يساير دائرة العقد، لا يتجاوز سمك الواحد 5صم، يسقط بواسطة طنف مسنّن على عضّادتين مدعّمتان بأعمدة متوأمة من الرّخام على طرفي المحراب، تحملان تيجان قديمة معادة الاستعمال من النوع الكورنثي. أما تجويفة المحراب فهى أيضا حديثة إثر عمليّة الترميم الأخيرة التي شهدها المعلم. تغطيها قطع صغيرة من الجليز المحلى بأشكال هندسية، وهو نفس زخرف الاطار الذي يحيط بالمحراب، الذي تتقدّمه قبة أسطوانية الشكل، تقوم على عقود نصف دائرية، ترتكز على أساطين تحمل هي بدورها تيجان قديمة. تتكوّن الرقبة من محارات ركنية تشع من الأسفل إلى الأعلى، لكنّها على عكس قبة بني خراسان أو قبة محراب الجامع الكبير بالمنستير أو مسجد السيد أو سوسة أو جامع القصر بتونس،

فإنها جاءت خالية من كل زخرف مثل القنوات أو الوريدات أو الأشكال الهندسية المربّعات والدوائر. نجد فقط بين كل محارة وأخرى فتحات في شكل محاريب صغيرة.تفتح بيت الصلاة في الجهة الجوفية على قبو طولي بواسطة بابين، يمتد هذا القبو على كامل طول الجدار الجوفي، تتخلّله نافذتين أما على يمين المحراب على مستوى الضلع الشرقي نجد باب يعلوه قوس يفضي إلى غرفة مستطيلة الشكل وهي مضافة للجامع تنتصب المئذنة في الركن الشمال الغربي، وهي مربّعة الشكل يعلوها جامور مثلث الشكل، ونجد على جهاتها الثلاث المتطابقة، نافذة متوأمة ذات عقود نصف دائرية متجاوزة، تسقط على ثلاث عميدات تحمل تيجان من الطراز الحفصي، تعلوها وسادة مربّعة يحيط بالنافذة افريز ناتئ، ويحيط بالعقود إطار مستطيل مضاعف، يفصل بين العنصرين طنف بارز، يكون حائط المئذنة أكثر نتوءا من النافذة التي تكون على نفس مستوى الإفريز الذي يحدّها من الأسفل، في حين يعلوها طنف علوى ثم إفريز مسنّن. قدّت النوافذ والأفاريز والجامور من حجارة الحرش ذات اللون البنّى وهي نفس الحجارة التي بنيت بها عقود الصحن. وجد المنبر على يسار المحراب، وهو من حجارة الجبس مبني في الحائط كثير الزخرف في الجانب الغربي حيث توجد في أسفله طاقات غائرة ومثناة، أخذت شكل محراب ذى عقد محدّب محاط باطار مستطيل مقعّر، يعلوهما سجل ثاني يحتوى على عدّة أشكال هندسية. اما الصحن يأخذ شكل شبه منحرف يحتل ثلث مساحة الجامع، يمتدّ على ظلعه الشرقي رواقين يتقدّمان بيت الصلاة، يتكوّن كل رواق من بائكة تضمّ ثلاث عقود نصف دائرية متجاوزة، تحمل تيجان كورنثية قديمة معادة الاستعمال، في حين يسقط العقد الأوسط للبائكة الثانية مباشرة على أساطين تنتهى جميع العقود بطنف ناتئ فوسادة. يتخلّل الرواق الأوّل الذي يتقدّم بيت الصلاة عقدين متعامدين مع الحائط الشرقي للصحن ويحفّان بالمدخل الرئيسي والأوسط من الجانبين.أرضية الصحن مبلّطة بالرّخام. في ظلعه القبلي توجد نقيشة تمّ اكتشافها في عمليات التّرميم الحديثة.واجهة المعلم غربية تتكوّن من عقد نصف دائري متجاوز، قدّ من فقرات متناوبة يبرزه زخرف ناتئ ينتهي على مستوى مفتاح العقد بزخرف هندسية، كوشات العقود أخذت شكل مثلث يشكل زاوية قائمة مع اطار مستطيل يحيط بكامل الواجهة يسقط العقد مباشرة على أساطين ترتكز على عضّادتين تقوم هي بدورها على عتبة تعلوها بمقدار، تجويفة العقد تضمّ باب ذي دفّتين يعلوها ساكف من الرخام على الجانب الأيمن توجد نافذة تحمل نفس العقد وزخرفته واطار المدخل مع اختلاف على مستوى المفتاح احتوى على مستطيل بداخله دائرة نصف محشورة نفس الزخرف نجدها على طرفي العقد تجويفة هذا الأخير عبارة عن طاقية صمّاء تكتنف مشبك من حديد مزخرف بأشكال هندسية مثلث تتفرع عنه خطوط ملتوية.

الجامع الكبير بصفاقس: حظي الجامع الكبير بصفاقس[17] (صورة عدد9) منذ القرن الأوّل للهجرة بأولوية اهتمام الحكام على مختلف الفترات التاريخية لأنّه

يعكس التوجه السياسي الديني والمذهبيوالإيديولوجي للدولة فيحاول الخليفة أو الأمير أو الوالى ترك بصمته في هندسته المعماريّة التي تختزن بتعاقب الأجيال مختلف أنماط الفنّ الإسلامي، لذا طرأت عليه عدّة تغييرات من الفترة الوسيطة إلى الفترة الحديثة، فشهد العديد من الترميمات والزيادات دلّت عليها مختلف التنقيبات الأثرية التي أجريت من طرف الباحثين[18]، ورغم ذلك لا نجد وصفا دقيقا له في مختلف النّصوص والمصادر[19] التي اكتفت في أغلب الأحيان بالإشارة إلى وجود المعلم الذي كان محور اهتمام المستشرقين[20]. وفي هذا الإطار يمكن تنزيل الأعمال المعمارية التي قام بها أمير صفاقس المستقلّ حمو بن مليل البرغواطي. يقع الجامع على أرض منخفضة يحتل موقعا استراتيجيا هامّا في وسط المدينة في تقاطع الطريقين الرئيسيين، تحيط به الأنهج من جميع الجهات فيحده شمالا نهج الأغالبة، وجنوبا نهج ابن سينا، وشرقا نهج الجامع الكبير، وغربا نهج الصبّاغين. وتنتهى إليه كل الأسواق، ليمثّل القلب التجاري للمدينة على غرار جامع الزيتونة، فيحدّه من الجهة الشرقية سوق الجمعة، ومن الجهة الشماليّة سوق الربع، ومن الناحية الغربية سوق الأقمشة[21].والإضافات التي أنجزت في عهد الإمارات المستقلّة هي تلك المؤرخة بنقيشة مثبتة في الواجهة الشرقية للمعلم التي مثّلت مرجعا في الفنّ الإفريقي اذ تتميّز هذه الواجهة بتعدّد أبوابها ونوافذها مثل جامع عمر بن العاص، وجامع ابن طولون، حيث لا نجد أقلّ من سبعة أبواب في كل واجهة جانبية[22]، وهي حسب مارساي تعكس التأثيرات المسيحية والمشرقية على الهندسة المعمارية الإسلامية من حيث تعدد الأبواب والمداخل، مثل كنيسة "بوردج" "Bourges" التي نجد فيها خمسة أبواب على كامل عرض المعلم وعلى الواجهة الجانبية[23]، كما وضعت الأشكال المعمارية حسب سجلاّت، مثل مدخل جامع المهدية، فنجد طاقات صمّاء في السجل السفلى، وطاقات غائرة وتأخذ شكل محاريب في السجل العلوى، وللتأكيد على العنصر الزخرفى يقع إحاطته بطنف مثل قبة بني خراسان، والواجهة الشرقية لجامع القصر، المتكوّنة من ثلاث طاقات كبرى مسطّحة عمودية تعلوها عقود نصف دائرية متجاوزة ومتراكبة ومتدرّجة على ثلاث مستويات[24]، وهو النموذج الذي نجده في الواجهة الشرقية للجامع الكبير بصفاقس، ولكن الأطناف المستعملة في مدخل جامع المهدية هي أطناف ربعيّة، وقع استعمالها لأوّل مرة في هذا الجامع كأداة للتأريخ بعد القرن العاشر ميلادي. نفس النمط المعماري نجده في واجهة جامع صفاقس الشرقيّة والتي جمعت بين مختلف الطرز المعمارية التي عرفتها إفريقيّة وهي الطراز الفاطمي الزيري. هذا الصنف من الطاقات الصّماء تمثل عنصر لتاريخ بعض المعالم مثل مسجد سيدي على عمار وقبة بين القهاوي. لقد تمّ تأريخ الأعمال العمرانية لحمّو بن مليل البرغواطي بنقيشة تحمل نصّا تخليديا مؤرّخا بسنة 478هـ/1085م. مثبّتة في مستوى جبهة الباب الأخير من الواجهة الشرقيّة شمالا على ارتفاع 2،43 م. وهي على شكل مستطيل يعلوه قوس نصف دائري يبلغ ارتفاعها 4،48م وعرضها 86 سم، ويحيط بها إطار بارز مدرّج

ومقعر في وسطه. قدّ من الرّخام الأبيض والرمادي. ويتراوح ارتفاع الحروف داخله بين 9 سم و44سم.من الخطّ الكوفي البارز المزهّر. نص النقيشة هو التالي[25] الشريط المحيط: بسم الله الرحمن وصلى الله على النبي محمد وآله وسلم تسليما مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل/ الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل/

الأشرطة الكتابية الوسطى:

-1- في كل سنبلة

-2- مائة حبّة والله يضاعف

-3- لمن يشأ والله واسع عليم.

-4- الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات (كذا)

-5- الله وتثبيتا من أنفسه كمثل جنّة بربوة

-6- أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن

-7- لم يصبها وابل فطلّ والله بما تعملون بصير

-8- مما أمر بعمله الأمير فخر الملك

-9- وكفيّه أبو المنصور حمّو بن مليل أيّد

-10- الله ونصره وأقرّه ولا خذله وذلك

-11- فـــي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة الله

أوّل ما نلاحظه وجود اختلاف بين الاسم الوارد في هذا النّص التخليدي "أبو المنصور حمّو بن مليل" الآمر بهذه الأشغال، وذاك الذي تذكره لنا مصادرنا الإخباريّة "أبو المنصور حمّو بن مليل البرغواطي"[26]. كما جاء هذا النّص محمّلا ببعض العبارات التي تؤكد أن حركة حمّو بن مليل الانفصاليّة مثّلت اتجاها سياسيّا نحو الملك الحقيقي بأتمّ معنى كلمة الاستقلال.وذلك من خلال اللّقب الذي اتخذه لنفسه ومفاده أنه "فخر الملك" و"كفيه"[27]. والذي تؤكده هذه المرّة وتقف عليه مصادرنا الإخبارية بما أنّها أوردت لنا أنه سكّ العملة باسمه. إضافة إلى وجود مجموع من الأدعيّة المصاحبة لاسم حمّو بن مليل، تحديدا في السطر العاشر، والمتضمّنة لمعاني "التأييد" و"النصر" و"عدم الخذلان" و"الإقرار" و"دوام الملك"، لنا أن نستنتج من خلالها الوضعية السياسيّة التي تعيشها المدينة المتّسمة بالنزاعات العسكريّة والحروب العديدة التي خاضها حمّو ضدّ أعداءه فكان الدّعاء له بالنّصر ولا تشير النقيشة إلى طبيعة الأشغال التي قام بها حمّو بن مليل، لكن الأكيد أنّها أشغال ترميم أو إضافة. لما تعرّضت إليه المدينة من خراب بعد حصارها سنة 474هـ /1081 – 1082م[28].وقد تكون لتلك الآيات القرآنية المتعلّقة بمعان الإنفاق والتكرم، هي محاولة من هذا الأمير لكسب تأييد أهالى المدينة، وخاصة الفقهاء منهم وجمع الصفوف حوله

الجامع الكبير بمدينة قفصة[29]: يمثل الجامع الكبير والقصبة (صورة عدد 10) في قفصة النواة المركزية للمدينة تحيط بهم الأسواق ثم الأحياء السكنية. وهذا التنظيم التفاضلي للعمران ينطبق على مدينة قفصة مثل بقية كبرى مدن افريقية. يشرف

المسجد الجامع على الوادي الكبير والقصبة على عين الطرميد وهو نفس موقع قصبة بنو جامع غير بعيد عن عين سلام وقصبة بنو الورد المشرفة على البحر وتحيط بهذا الفضاء الأسواق العامرة التي سبق وأن ذكرها الإدريسي مثل سوق العطارين[30]، احتلت المؤسّسات التي تمثل المقرّ السياسي والديني لإمارة بني الرند النّاحية الشماليّة الغربيّة والجنوبيّة الغربيّة لمدينة قفصة القبليّة أي داخل الأسوار، وهو ما يرجح أن سلطة بني الرّند تأسّست في النواة الحضريّة لموقع المدينة الحالي[31]، تبرز مركزيّة الجامع الكبير بقفصة باعتباره نقطة انطلاق أو وصول لشبكة المواصلات، وهذه الخاصية هي من ثوابت العمران في المدن الإفريقيّة[32]

يتكوّن المعلم مثل بقية الجوامع بإفريقيّة من بيت الصلاة والصحن، ويشبه تخطيطه البازيليكي لجامع القيروان والزّيتونة بتونس وجامع المهدية، ويرى مارساي في هذا الجانب وجود تأثيرات مسيحية على هندسة الجوامع بإفريقيّة[33]، وأنّ تنظيم الكنيسة أثّر على هيأة الجامع الإسلامي من ذلك أهمية وجود المدخل في الواجهة مثل الكنائس المسيحيّة الرومانيّة. وقد استغل بنو الرّند هذا المعلم لفائدتهم وحافظوا على هيأته وهيكله دون القيام بتحويرات حيث لم تتحدث المصادر عن انجازاتهم أو إضافاتهم في الجامع.

II. الفنّ المعماري للإمارات المستقلّة: تأثيراته ومصادر إلهامه:

المحاريب: تشترك المحاريب في الجوامع الإفريقية في العناصر المعمارية المكونة لها لكنها تختلف في تفاصيلها الزخرفية، بالنسبة لمحراب جامع القصر فإنه ينقسم إلى سجلين علوى وسفلى الجزء السفلى مُحلى بقنوات تنتهي بطاقات صمّاء، تأخذ شكل محاريب يعلوها عقد أذن السلّة، ينتهي بطنف ربعي تسقط على ركائز عمودية صغيرة الحجم مستطيلة الشكل هذه المحاريب تعلوها محارة مستوحاة من محراب المهدية الذى يتكوّن في جزءه السفلى من قنوات كل قناة تنتهي بمحارة ثلاثية الفصوص أو خماسية الفصوص والجزء العلوى محلى بصدفة كبيرة مشعّة يفصل بين السجّل العلوي والسفلي طنف ناتئ يصل في الجانبين إلى مستوى وسادة تيجان المحرابوالقبة من الخارج نصفية مضلّعة. كما يشبه ايضا محراب الجامع الكبير بالمنستير المتكوّن من حنية مجوّفة تعلوها نصف قبّة تحلّيها مجموعة من القنوات نفس زخرف المحراب نجده في مسجد رباط السيدة[34] الذي جاء على شكل محاريب مسطّحة تعلوها عقود وطاقية مشعّة من الأعلى إلى الأسفل ومسجد التوبة الذي يوجد قريبا من الرباط وكذلك مسجد الأنصار. رغم الاختلافات البسيطة بين هذه المحاريب حيث يحتوى البعض على محاريب مسطحة متوّجة بعقود وأخرى محاريب نصف دائرية تعلوها محارات فإنها جميعا تنتمي لجذع مشترك تعود أصوله إلى الفن الفاطمي في المهدية يمكن القول، أنّ عمارة بني خراسان والأمراء المستقلين تأثّرت بالعمارة في مدينة المنستير التي مثّلت مقبرة للحكام الفاطميين والزيريين ليجسد زخرف المحارة أو الصدفة الذي نجده في أغلب فتحات المحاريب والواجهات أهمّ خاصية للسّجل المعمارى لهذه الفترة أيضا برزت

تأثيراته في صقلّية في "قصر القبّة"[35]. بل أنّه راسخ منذ القدم في الفنّ الافريقي المحلى بتجسيده في قوس النصر الروماني في سيدي علي خليفة والذى زُيّن بحنية في شكل محراب، إذن أخذت العمارة الخراسانيّة أو البرغواطيّة عن العناصر الموجودة في العمارة الفاطميّة بالمهدية والزّيرية بالمنستير والتي تختلف كلّيا عن الزخرفة الأغلبية في القيروان وسوسة لتؤلّف فنّا محليّا ينسجم مع الفن الإفريقى لتقوم شواهد حيّة على أنّ النمط المعمارى نضج واتّضحت ملامحه وثبتت عناصره واكتملت شخصيته عهد الامارات المستقلّة.

القباب[36]: بنى بنو خراسان قبة تعرف بتربة سيدي بو خريصان تقع حاليا بنهج ابن محمود العزيز ابن عبد الحق نسبة إلى مؤسس الدولة الخراسانيّة في سوق القشاشين، في القسم الغربي من المدينة في ربض باب منارة غير بعيد عن جامع القصر، حذو الأسوار وهو معلم حضري يمتد على مساحة تأخذ شكل مستطيل بين الشمال والجنوب مع انحراف في أضلعه الشرقيّة والغربيّة، يتكون من جزئين رئيسين قبة بني خراسان وصحن فسيح واجهة المعلم شرقيّة المفتح (صورة عدد11)، يحفّ بالمدخل من الناحيتين الشمالية والجنوبية غرف المنافع بالإضافة إلى واحدة في الركن الشمالي الغربي ويفضي بواسطة ثلاث درجات إلى الصحن حيث تنتصب على جميع جهاته الشواهد والقبريات تتوسط الصحن نافورة قرصانيّة محاطة بحوض مربّع، أما القبة فتحتل الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من الصحن.تأخذ القبة شكل مربّع طول ضلعه 5.70م مفتوحة منجميع جهاتها إلا الجهة الشرقيّة التي تمثل واجهة المعلم، يتخللها مدخل تعلوه فتحة صغيرة، يتكون من باب طوله 2.35م وعرضه 1.70م، ويحيط به إطار من الرخام سمكه 10صم، يتناظر هذا المفتح مع نافذة مستطيلة الشكل توجد على يساره أبعادها 1.37 موعرضها 0.85م، ترتكز القبة النصف كروية الشكل على أربعة عقود نصف دائرية تتميز كل واحدة منها بسعة فتحتها، تحملها تيجان من الصنف الخراساني يعلوها طنف فوسادة ثم طنف آخر يمثل مسقط العقود، تقوم هذه التيجان على أربعة أعمدة متينة تمثل هيكل القاعدة المربعة، يبلغ طول بدن العمود الذي قدّ من الرخام الأبيض 2.25م يرتكز على قاعدة مربعة، ويعلوها شكل اسطواني الذي يسقط عليه مباشرة العمود، وهي من نفس صنف الأعمدة الخراسانيّة التي نجدها على طرفي محراب جامع الزيتونة. يتم استعلاء القبة بواسطة العقود، وهي طاقية نصف كروية الشكل قدّت من حجارة مهندمة ومصقولة ومتقنة الوضع، يحدّها من الأسفل طنف ناتئ يلتصق به من الأسفل إفريز من الحجارة له نفس سمك الطنف أي 10سم، ويسايران كافة محور الطاقية ويفصلان بين القبة والرقبة التي تتكون من محارات ركنية ومحاريب صغيرة يمكن تقسيم القبة إلى سجلين سجل سفلى، يتمثل في الشكل المربع ويتكون من الأقواس والأعمدة والقاعدة، وسجل علوي يتمثل في الشّكل الدائري.تكون واجهة المعلم شرقيّة المفتح متكوّنة من عقد نصف دائري متجاوز يحدّه إفريز بارز يحيط به إطار مستطيل مضاعف ومتدرّج من الرخام الأبيض

مقام على عضّادتين يعلوهما طنف ناتئ وساكف يتكوّن من لوحة رخاميّة مربّعة الشكل تحمل نقيشة من الخطّ الكوفي البارز الغير منقط ويحيط بها إطار بارز وفوق هذه النقيشة نجد زخرف يتمثل في طاقية صمّاء يكتنفها عقد مثني متكوّن من فقرات من حجارة الكتّال ذات اللونين الأحمر والبني وضعت بصفة متناوبة نفس هذه التقنية نجدها في نقيشة جامع المهراس وعلى الطرف الغربي لمحراب جامع الزيتونة وفي أعلى الباب الشمالي الذي يفتح على سوق العطارين وفي أعلى أحد الأبواب الشرقيّة كما تمثل قبة سيدي بوخريسان من حيث هندستها وعمارتها وزخارفها، تطوّرا كبيرا في نظم بناء القباب الإسلاميّة، فنستطلع من خلال هذا المعلم، أبلغ سمات الفنّ الفاطمي والزّيري بالمغرب الأوسط والأدنى، إذ نلاحظ التماثل الكبير بينه وبين قبة الهواء[37]، وقبة البهو المؤرّخة بسنة 381ه عهد المنصور التى تنتمي من حيث البناء إلى القباب الأغلبية لكنها تحتوى على الزخرفة الفاطمية زخرف تناوب فقرات العقود بين اللّونين البني والأحمر la bichromie نفس الزخرف في الباب الذي يفتح على سوق العطارين وباب الواجهة الشرقية للجامع وفي قبة سيدي بوخريسان وقبة جامع الهواء بمدينة تونس وقبة بين القهاوي بمدينة سوسة وبالتالي تتنزّل قبة البهو لجامع الزيتونة في نفس المدرسة المعماريّة للإمارات المستقلّة. نفس التماثل نلحظه مع قبة المنار في قلعة بني حمّاد[38]، التي لم تكن مدينة منعزلة في أعلى الجبل، بل أن ملامحها وخصائصها المعماريّة، كانت مصدر إلهام لعديد من المدن بإفريقيّة من صبرة إلى المهدية وتونس تحت حكم بني خراسان. وانتشر هذا النمط أيضا في صقلية، تحديدا في بالرمو حيث نجد مثالين للقبة: CUBA وZIZA (صورة عدد 12) تشترك جميع هذه القباب في احتوائها على رقبة مربّعة الشكل، تضمّ محارات أو طاقات ركنية، وأحيانا تكون في شكل نصف قبو متقاطع مثل:" SAN DEGLI EREMITI GIOVANNI"، ليصبح هذا الصنف من القباب احدى خصائص الهندسة المعمارية خلال القرنين العاشر والحادي عشر ميلادي. لذلك مكنتنا دراسة قبة سيدي بوخريسان من تأريخ معالم أخرى مثل مسجد القبة[39] وإرجاعه إلى نفس الفترة.

الواجهات[40]: تنتمي واجهات المعالم الدينية للإمارات المستقلة حسب نمطها الزخرفي للفن المعماري الزيرى الفاطمي الذي يتميز بهندسة المحاريب العمياء المسطحة والمحاطة بزخرف ناتئ على شكل حلية ربع دائرية، هذا الشكل في البناء تميزت به واجهة جامع القصر بهندستها ذات الطاقات الكبرى التي تأخذ شكل محاريب صمّاء عموديّة، تعلوها عقود نصف دائرية متجاوزة، وأيضا الواجهة الشرقيّة للجامع الكبير بمدينة صفاقس[41] حيث هيأت الواجهة التي يبلغ طولها حوالي 57م بمحاريب عمياء مسطّحة أو مقعّرة ذات عقد مضاعف محاط بطنف مسنّن بمكعبات على شكل حلية ربع دائرية، والمحاريب الأكثر أهمية هي التي تحيط بالمدخل. هذا التنظيم مستوحى دون شك من العاصمة الفاطمية المهدية حيث نلحظ في مدخل الجامع الكبير تناوب المحاريب العمياء المسطحة أو المقعّرة

المحاطة بناتئ زخرفي اعتمدت واجهة جامع القصر والواجهة الشرقية لجامع صفاقس هندسة المحاريب العمياء المسطحة والمحاطة بزخرف ناتئ، وواجهة مسجد التوبة في المنستير (صورة عدد13).ليمثّل السجل الزخرفي المؤرّخ بالقرن الحادى عشر مواصلة للتقاليد المحلية الافريقية ومُؤشّر هام من شأنه أن يساعدنا على تأريخ بعض المعالم الأخرى منها مسجد "سيدي علي عمّار"[42] (صورة عدد14)، إذ انتظمت واجهته الشرقيّة على شكل محاريب عموديّة نصف دائرية تعلوها تجويفات تأخذ شكل صدفة، وأخرى صمّاء تعلوها عقود نصف دائرية متجاوزة، وأخيرا نجد طاقتان تنتهى في أعلاها بقمة حادّة، ووريدات تكمّل هذا الزخرف. أيضا ميّز عنصر المحاريب الصمّاءالمغطّاة بالعقود النصف الدائريّة المتجاوزة واجهة مسجد التوبة بالمنستير، بالتالي يمكن إرجاعهما للفترة الفاطمية-الزّيرية. ما يمكن ملاحظته في الهندسة المعمارية للمعالم الإفريقية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر هو زخرفة الواجهات الخارجية باستعمال الطاقات المسطّحة أو الغائرة، وهي أهمّ خاصية للفنّ الصنهاجي وأبلغ مثال على ذلك هو مسجد السيّدة[43] وباستثناء جامع الثلاثة أبواب[44] فإنّ بقية الجوامع الأغلبية تعطينا واجهات خالية من الزّخرف ذات أسلوب بسيط يأخذ طابع عسكري أكثر منه ديني، فأصبح الشكل المعماري هو المستخدم لإضفاء البعد الجمالي على المعلم الذي لم يعد مقتصرا على الكتابة والنحت. هذه التأثيرات ظهرت في المغرب الأوسط في قلعة بنى حماد[45].

الخاتمة: تبرز دراسة العمارة الدينية للإمارات المستقلّة بمختلف المدن الإفريقية أهمية البعد التمفصلي لهذه الفترة في قدرتها على استيعاب أنماط الفنون السابقة لها وتبني الأساليب المعمارية للفنّ الفاطمي الزيري وتواصلت بذلك التقاليد المحلية خلال القرنين الخامس والسادس الهجر يحيث مثّلت افريقية مركزا هامّا للفنّ القيرواني تدعمّت خصائصه مع الدولة الصنهاجيّة ثمّ الإمارات المستقلة ليصبح في ما بعد مصدر إلهام للمهندسين القرطبيين وكذلك تأثّرت به العواصم الحمّادية للقلعة وبجاية، ووقع تصديره معماريّا نحو المحيط الجغرافي الخارجي للبلاد حسب انتمائها العربي الإسلامي مع بلاد المشرق والمغرب من ناحية، وبلاد الأندلس وصقلّية من ناحية ثانية. فحصل نوع من التمازج والتأثير الثقافي المتبادل ليأخذ الفنّ الإسلامي الإسباني والصّقلي في العديد من خصائصه عن الفنّ المعماري الإفريقي. ثم وقع تهيئة البلاد بكل مرونة بداية من النصف الثاني من القرن السادس الهجري لاحتضان تأثيرات الفنّ المغربي الأندلسي لنخلُص بذلك إلى ضرورة تنزيل هذه المرحلة في موقعها المحوري لا الهاشي.

قائمة الصور

باب الواجهة الشرقية لجامع الزيتونة (صورة عدد1)

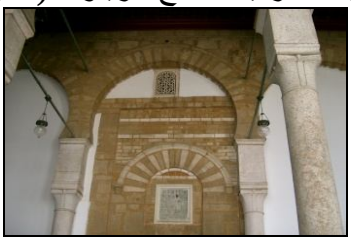

باب سوق العطّارين (صورة عدد2)

زخرف على جدار القبلة لجامع الزيتونة(صورة عدد3)

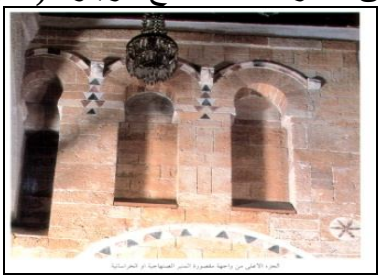

جامع القصر (صورة عدد4)

محراب جامع القصر (صورة عدد5)

جامع المهراس (صورة عدد6)

بنقيشة جامع المهراس(صورة عدد7)

جامع القصبة ببنزرت (صورة عدد8)

واجهة الجامع الكبير بصفاقس (صورة عدد9)

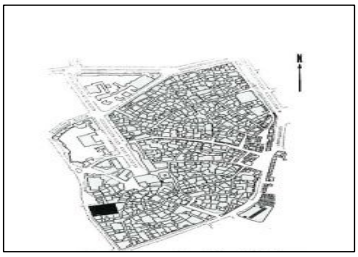

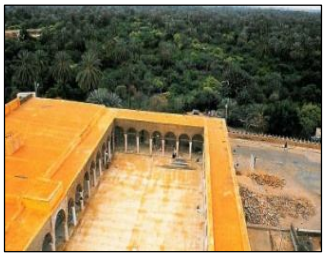

الجامع الكبير بقفصة (صورة عدد10)

قبة بنى خراسان والصحن (صورة عدد11)

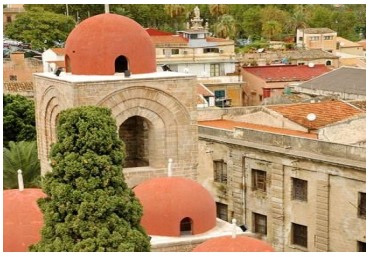

(صورة عدد12) (قصر العزيزة ببالرم بصقلية واستلهام النمط الخراساني للقبة)

واجهة مسجد التوبة في المنستير (صورة عدد13).

مسجد سيدي علي عمّار (صورة عدد14)

الهوامش:

1- الطالبي محمد، 1985.؛ الدشراوي فرحات، 1994.؛ إدريس الهادي روجي، 1988.؛ برنشفيكروبار، 1988.؛ حسن محمد، 1999.

2- BERQUE (J.), " Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siécles d'après un manuscrit jurisprudentiel", *Annales ESC*, 1970, n° 5, PP 1325-1353. ;BERQUE (J.), "Du nouveau sur les Banu Hilal", *StudiaIslamica*, XXXVI, 1972, PP99- 113; BRETT (M.), "Ifriqiya as a market for Sahariantrade"*Journal of History*, III, 1969, PP 347-364. ; BRUNSCHWIG, R., 1940-1947 ;CAHEN (C.), "Note sur les Hilaliens et le Nomadisme" *JESHO,* XI, 1968, PP 130-133 ; DAGHFOUS (R.)," Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V^{eme} siècle milieu du XI^{eme} siècle Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des Tribus Arabes (Hilal et Sulaym) en Ifriqiya" *C.T,*Tom XXV, 1977, 1^{ere} et 2^{éme} trimestre, N°97-98, P222. ;DAGHFOUS (R.)"De l'origine des Banu Hillel et des BanuSulaym",*C.T*. tom XXIII, 1975, N°91-92, PP41-68.DESPOIS (J.), *La Tunisie orientale : Sahel et Basse steppe. Etude géographique*, Paris, 1955 ; GAUTHIER (E-F.), *Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927. Réédité sous un titre différent : *Le passé de l'Afrique du Nord* Paris, 1937 ; HASSEN, M., en arabe 1986; IDEM., en arabe 1999. ; IDRIS (H. R), "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", *Annales E.S.C*, 1968, PP390-396.;MARCAIS (G.), La Bérberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, édition MONTAIGNE, Paris. (sans date) ; PONCET (J.), "Le mythe de la catastrophe hilalienne"*Annales ESC*, 1967, PP1086-1107 ;THEBERT (Y.), "Permanences et mutations des espaces urbains dans les villes de l'Afrique du Nord orientale : De la cité antique à la cité médiévale" *C.T*, XXXIV, 1986, N° Spécial 137-138, PP 31-46.

3-ابن تغربردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكى)، ت874/1470م، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة ، 1929، ص1-2.

4- DAGHFOUS (R.) " La bataille de Haydaran et l'affrontement entre les Zirides et les Hilaliens au Ve -XIe ; siècle". *CT*, 1995, N° Spécial 169-170, PP 11-26.

الزرقاني (أحمد)، **هجرة القبائل العربية بني هلال وسليم وانتشارها في إفريقية، منذ معركة حيدران (433 – 453 / 1052م) حتى قيام الدولة الحفصية (626 هجري – 1229م)**، شهادة الكفاءة في البحث، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1984.

5-الدولاتلي، الزيتونة، **عشرة قرون من الفن المعماري التونسي**، تونس، 1996، ص48.

6-زبيس (مصطفى سليمان)، نقائش عربية، 1955، ص38-40، ابن عاشور محمّد العزيز، ابن عاشور (محمد العزيز)، **جامع الزيتونة المعلم ورجاله**، دار سيراس للنشر، تونس 1994، ص 28. عبد الجوّاد لطفي، عبد الجواد (لطفي)، **النقائش المعمارية بكبرى مدن إفريقية التونسية إلى نهاية القرن الخامس هجري / 11 ميلادي**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1 ، 1996، ص 162.

7-العجابي حامد، "خزف صبرة المنصورية"،**إفريقية** عدد 11 – 12، ص 7 – 81، المعهد الوطني للأثار، 1992 – 1993، ص 22، عبد الجواد لطفي، 1996، ص 180.

[8]- ZBISS, S.M., "La Grande Mosquée Zitouna de Tunis", *CRAI,* 1953, PP443-452

9-شبّوح ابراهيم، إشارات وهوامش حول جامع الزيتونة، **الحياة الثقافية** ،1997،ص4-10.

10- MAHFOUDH (F.) *Architecture et Urbanisme en Ifriqiya médiévale (Proposition pour une nouvelle approche),* Centre de Publication Universitaire, Faculté des Lettres de La Manouba ,2003 . ; MAHFOUDH (F.), " observation sur la mosquée AL-Kasr de Tunis", *Mélange d'Archéologie, d'Epigrahie et d'Histoire*, INP, Tunis, 2001, PP 165-193. REVAULT(J.), *Palais et Demeures de Tunis (XVIII – XIXéme*, Paris, 1983, PP229-261.

11- البكري، المسالك والممالك، ص695-696، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص285، مؤلف مجهول، الاستبصار، ص122.

PEYSONNEL (J.), voyage dans la régence de Tunis et Alger, 2T, Paris, 1838.P53. ; Marçais(G), Kairouan et Tunis, Paris, 1937. P78. ; PELLEGRIN (A), Le vieux Tunis les noms de rues de la ville Arabe, Tunis, 1951.P48.

12- BRUNSCHVIG, R., La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle, 1940, p 340.

POINSSOT (P.), "Quelques édifices du Moyen Age et des temps moderne" *Tunisie Atlas Histori Géographique, Economique et Touristique*, Paris, 1936. P49; IDRIS, H .R., 1978, p61- 63. ;

REVAULT, J,. 1974, pp 71-83. ; REVAULT(J.), *Palais et Demeures de Tunis (XVIII – XIXéme*, Paris, 1983, PP229-261.

13- ابن خلدون، كتاب العبر.. ، ج6، 1959، ص334.----14-ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س.كولانوإ. ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، 1962، ج1، ص 314

15-MAOUDOUD (K.), "L'inscription Khurasanide de Masgid Al- Mihras 485H /1092 J.C "*AFRICA*, XI-XII, 1992, PP199-207.

16-ZBISS, (M,S), 1955, Inscriptions de Tunis et de sa Banlieue, Tunis, 1955p41-42 ;MAOUDOUD (K.), "L'inscription Khurasanide de Masgid Al- Mihras 485H /1092 J.C " AFRICA, XI-XII, 1992, PP199-207.

17- MAHFOUDH ,F., Le nord de la petite Syrte au Moyen Age: question de toponyme", Du Byzacium au Sahel, itinéraire historique d'une région tunisienne, textes réunis par Abdellatif Mrabat, Tunis, 1999, p. 147-176. Édité aussi en *IBLA*, 1988, p 231

18- دمّق توفيق،"تنقيبات بالجامع الكبير بصفاقس" **مجلة أفريقا**،1995 ، عدد 13، ص. 17-43

19- البكري، المسالك والممالك ص 669 "ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع"، الحموي، البلدان،ج3، ص223 "وهي على بحر ذات سور وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع"، التّجاني،الرحلة، 1981، ص 68 "وبها جامع حسن"، الورثيلاني، ص656-657، " وفيها مسجد عظيم"، مقديش،نزهة الأنظار ،1988، ج2، ص175؛ الوزير السراج، الحلل السندسية، 1984.

20- GOLVIN (L.) et MARCAIS (G), *La grande mosquée de Sfax*, Tunis, I.N.A.A., 1960. ; LEZINE, A., Architecture de l'ifriqiya recherché sur les monuments aghlabides1966, p116.

21- عبد الكافي أبو بكر، **تاريخ صفاقس الحياة العمرانية**، جزئين، صفاقس 1966، ج1، ص.112

22- MARCAIS, G .,"Remarques sur la position des entrées latérales dans les mosquées d'Orient et d'Occident"*Mélange d'Histoire et d'Archéologiede l'Occident Musulman*, T1, Alger, 1957, PP 119-130.

23- MARCAIS, G .,"Remarques... » *Op.Cit,*

24- GOLVIN, *Recherche archéologique à la Qalaa des Banu Hammad*,1965, p 114

25- *GOLVIN et MARCAIS, Op. Cit.1960, p. 17 – 18; MAHFOUDH, F.,La ville de Sfax: recherche d'archéologie monuentale et évolution urbain, Thése sous direction de J.Sourdel – Thomime, 2T, Paris, 1988.*
1988, TII, p 694

26- ابن عذارى، البيان، ج1،ص 294.----27-القلقشندى، ج 6، ص63. القلقشندي (أبو العباس أحمد)، ت 764هـ/1363م، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبيار، القاهرة، 1986.

28- MAHFOUDH ,F.,"Le nord de la petite Syrte au Moyen Age : question de toponyme", Du Byzacium au Sahel, itinéraire historique d'une région tunisienne, textes réunis par Abdellatif Mrabat, Tunis, 1999, p. 147-176. Édité aussi en *IBLA* ,1988, T II, p 695.

29- TALBI (M.),"kAFSA", *EI*, 1978, T IV, PP 433-435.

30- المنتصر بن المرابط بن أبي لحية القفصي،1998، ص217-386.

31- COLLECTIF, *Gafsa : une médina oasienne en Tunisie*, sous la coordination de Francesca Soro et P. de Montaner, Association pour la Sauvegarde de la Médina de Gafsa, ASM Gafsa, 2004. P55

[32]- منيرة الرمادي شابوطو،)، "تاريخ المدن العربية الإسلامية الأولى"، **الفنّ العربي الإسلامي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الثاني، تونس،1955، ج2، ص9-25.

33- MARCAIS, G .,"Remarques sur la position des entrées latérales dans les mosquées d'Orient et d'Occident"Mélange d'Histoire et d'Archéologiede l'Occident Musulman, T1, Alger, 1957, PP119-130.

34- DARQHOUTH, (S.), " Masgid ribat AL-Sayyda, un monument ziride de Monastir", AFRICA, Série ATP XIV, 2005, PP5-52.

35- GOLVIN(L.), Recherche archéologique à la Qalaa des Banu Hammad**,**1965, p 120

36- GOLVIN (L.), "Note sur les coupoles de la grande mosquée Al-Zaytuna de Tunis", R .O.M.M., 2éme semestre, 1966, P95. POINSSOT (P.), "Quelques édifices du Moyen Age et des temps moderne" Tunisie Atlas Historique Géographique, Economique et Touristique, Paris, 1936.

37- DARQHOUTH, (S.), LES ORATOIRE DEZ QUARTIERS DE LA MEDINA DE TUNIS, thèse d'IIIème cycle, sous la direction de Madame Le Professeur JANINE SOURDEL THOMINE, Décembre 1983.

38- GOLVIN,(L.), Recherche archéologique à la Qalaa des Banu Hammad**,** Paris,1965, p 109.

39- DARQHOUTH, S., 1983, p 133.

40- GOLVIN L., "Note sur le décor des façades en Béribérie Orientale à la périodeSanhajienne", Etude d'Orientalisme dédiées à la Memoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962, PP 581-590.;MARCAIS (G.), "Remarques sur la position des entrées latérales dans les mosquées d'Orient et d'Occident"Mélange d'Histoire et d'Archéologiede l'Occident Musulman, T1, Alger, 1957, PP119-130.

41- GOLVIN (L.) et MARCAIS (G), La grande mosquée de Sfax, Tunis, I.N.A.A., 1960. ; MAHFOUDH (F.)La ville de Sfax : recherche d'archéologie monumentale et évolution urbain, Thèse sous direction de J.Sourdel –Thomime, 2T, Paris, 1988

42- GOLVIN, Les Influences Ifriqiennes sur l'Art de l'Espagne Musulmane aux Xèm et XIèmsiécles", RT, N°15-16, troisième et quatrième trimestres, 1933, p227-282.

43- DARQHOUTH, S., " Masgid ribat AL-Sayyda, un monument ziride de Monastir", AFRICA, Série ATP XIV, 2005, p 5- 52.

44- GOLVIN, "Note sur le décor des façades en Berberie Orientale à la périodeSanhajienne", Etude d'Orientalisme dédiées à la Memoire de Lévi-Provençal, Paris,1962, PP 581-590

45- GOLVIN (L.), Recherche archéologique à la Qalaa des BanuHammad**,** Paris,1965.GOLVIN (L.),"Les Modes d'Expression Artistique au Maghreb", MAGHREB MEDIEVAL, 1991, PP 227-282.

GOLVIN (L.), "Les Influences Ifriqiennes sur l'Art de l'Espagne Musulmane aux Xèm et XIèmsiécles", RT, N°15-16, troisième et quatrième trimestres, 1933, PP252-262.

Architecture independent kingdoms in Ifriqiya in the Late Middle Ages: breaking or continuation with the Ifriqiyan artistic traditions

Wiem Essaïd- Laboratoire Esicmed, Université de La Manouba)

Abstract : After the fall of the Fatimid dynasty Zirid predecessor big cited had become city-states founded by Governors who rebelled against the central power of Kairouan during the 11 centuries, these independent emirates were localized within countries on the odds, local principalities are the banujamaain Gabes, Sfaxbanubarghawata to the Ziridin mahdia, banukhourassen in Tunis, banu el-ward in bizerte, banu el rand in Gafsa. it was a turning point between the high and the low average age. Our question here is about the study of different artistic aspects of this period breaking or continuation with the character of Ifriqiyan Mediterranean and Arab-Muslim world general as a whole. I choose to address a specific topic wich is the religious architecture and I divide it in too parts that currency work in two parts, the first, was based on a monumental directory for example the Grand Mosque Zaytouna the Ksar Mosque, the Mosque of Mahres, the Great Mosque of Sfax, the great mosque of Bizerte kasaba, Mosque of Gafsa, and the second one the origins of artistic inspiration is evoked this period according to the mihrabs , domes, facades.